الفصل الثاني

طرائق تعليم الكبار عند المسلمين

الطرائق التفاعلية

- المناقشة
- المناظرة
- المراسلة

طرائق التعلم الذاتي

- القراءة
- المذاكرة
- الممارسة والعمل
- الرحلة

طرائق العرض والإلقاء

- التلاوة
- المحاضرة
- الإملاء
- القدوة
- القصة

obeikandl.com

الفصل الثاني

طرائق تعليم الكبار عند المسلمين

تمهيد

تعتبر الطريقة والأسلوب من الوسائط الرئيسة في العملية التعليمية. ووجودهما وتطبيقهما ذو أهمية استثنائية في إطار القيام بأي عمل منظم وهادف. وهما لا يقتصران على كونهما مجرد جهاز أو أداة، لأنّهما يعبران عن تنظيم لمجموعة من المداخلات، التي من شأنها في حال تم توظيفها بفعالية وبحدود الإمكانيات المتاحة والوقت المحدد أن توصل إلى أفضل النتائج المتوخاة في ضوء الأهداف المخطط لها. فمن الوجهة التربوية يمكن القول بأنّ الطريقة تعني «مجموع الأنشطة والإجراءات التي يقوم بها المدرس، أو التي تبدو آثارها على ما يتعلمه التلاميذ»[1].

وإذا كان التعلّم يعرّف بأنّه «حصيلة من حواصل التفاعل المتبادل ما بين الفرد ومحيطه، والتي تتمثل في إدراك الفرد بنفسه للأشياء من حوله، واكتسابه للمعلومات والمعارف والخبرات التي يستطيع عن طريق معالجتها في دماغه أن يوظفها في الحفاظ على بقائه، وتلبية حاجاته، وتحقيق أهدافه، وتعديل سلوكه، وتطوير أساليب عيشه، واستمرار تقدمه في شتى المجالات والأصعدة»[2]. فإنّ الطريقة في العملية التعليمية التعلمية ذات أهمية كبيرة لأنّها «الوسيلة التي تربط بين المتعلمين، وبين أهداف التعليم ومواده ومعيناته في علاقة منظمة. ولهذا يجب عند النظر في

(1) أحمد حسين اللقاني وزميله: **تدريس المواد الاجتماعية**، ص: 178.

(2) أحمد فوزي الصاحب: **دليل المعلم حول المبادىء الأساسية في التعليم والتعلم**، ص: 12 ـ 13.

أي طريقة أن ننظر إليها من حيث الأهداف التعليمية أو التغيرات السلوكية التي تسعى إلى إحداثها، والمتعلم الذي تغير سلوكه المواد التي تستخدمها والمعينات والأمكانيات المتاحة»[1].

فالطريقة قد تتضمن معنًى ضيقاً والمقصود به توصيل المعلومات، ومعنًى واسعاً شاملاً هو اكتساب المعلومات، مضافاً إليه وجهات نظر وعادات في التفكير وغيرها[2]. إلّا أنّ هذه الطرق من الوجهة الإسلامية يجب أن تبقى مترابطة ومتكاملة، لأن الإنسان في نظر الإسلام يبقى بحالة تعلم مستمر، يضاف إلى ذلك أن لكل طريقة من هذه الطرق آثارها في بناء جانب من جوانب شخصية الفرد.

لذا فإن الطريقة تعتبر ضرورة لا غنى عنها في المجال التربوي. ففي ظل وجود طريقة أو أسلوب يمكن لبرنامج تعليم الكبار أن يخطو خطوات ثابتة إلى الأمام بحيث يمكن أن[3].

1 ـ تكون إمكانية التعلم أسرع.

2 ـ تقل الخسارة في الوقت والزمان.

3 ـ تقل الحاجة لممارسة الضغط على التلاميذ.

4 ـ تزداد إمكانية التعلم.

5 ـ تسهل عملية التقويم لمستوى التقدم.

6 ـ تزداد مراعاة النظم في نقل المفاهيم.

7 ـ يصبح المعلم أكثر واقعية في عمله.

وبما أنّ التربية الإسلامية منهج حياة كان على معلم الكبار أن «يستخدم أفضل الطرق والوسائل التي تحقق الأهداف العامة لهذا المنهج والأهداف الخاصة

(1) محمود رشدي خاطر: **طرق تعليم الكبار وإمداداته**، ص: 2.
(2) صالح عبد العزيز وزميله: **التربية وطرق التدريس**، 1/ 239.
(3) علي القائمي: **أسس التربية**، ص: 193.

لمادته ودرسه»[1]، بحيث يكون موجهه في سلوكه وأدائه لمهمته قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]. وقول الرسول ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دينكم**»[3].

ومن يسترشد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لا بد وأن «يهتدي إلى بعض ما اختطته العناية الإلٰهية من أساليب مؤثرة بليغة ربّت النفوس وارتقت بالهمم، حتى حدث ببضع عشرات من ألوف المؤمنين أن يفتحوا قلوب البشر للهدي الإلٰهي، وللحضارة الإسلامية، ومكنت لهم في الأرض في سعتها وفي عمق الزمان ما لم يتح لغيرهم من أمم الأرض أن يتمكنوا فيه»[4].

وهذا ما يقود إلى القول: «إنّ نجاح أي عملية تعليمية يعتمد على الطريقة التي يستخدمها المعلم في توصيل المعلومات والمعارف إلى تلاميذه، مما يحقق اكتساب التلاميذ لهذه المعلومات عن رغبة واقتناع بها. كما يتوقف على قدرة المعلم في تهيئة نفوس المتعلمين، مما يجعلهم على استعداد للاستيعاب وقبول كل معلومة تقدم إليهم»[5].

وقد اعتمد الرسول ﷺ ومن جاء بعده من المربين المسلمين «طرقاً عدة في تربية الإنسان المسلم، طرقاً تراعي الفروق الفردية بين المتعلمين، وتحترم طاقاتهم ومواهبهم، وتعمل على تنميتها»[6].

ويمكن تحديد أهم الطرائق التي استخدمها المسلمون في تعليم الكبار مع الإشارة إلى أن الطرائق التي ستطرح هنا ليست نهائية أو هي فصل الخطاب في هذا المقام، وإنما هي مجرد نماذج من الطرائق التي كانت معتمدة والتي سنقوم باستعراض بعضها على ضوء فاعلية ودور كل من المتعلم والمعلم في الموقف التعليمي.

---

(1) علي مدكور: **منهج التربية في التصور الإسلامي**، ص: 429.
(2) سورة: الحج، الآية: 78.
(3) مسلم: **صحيح مسلم**، 4/ 1836.
(4) عبد الرحمٰن نحلاوي: **أصول التربية الإسلامية وأساليبها**، ص: 205.
(5) أمينة أحمد حسن: **نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول**، ص: 235.
(6) عبد الجواد السيد بكر: **فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف**، ص: 313.

وبناء على هذا المعيار يمكن تصنيف طرائق تعليم الكبار إلى ثلاثة أنواع هي:

أ ــ الطرائق التفاعلية:

وهي التي تقوم على جهد المعلم والمتعلم بمعنى أن يشترك كلاهما بفاعلية في العملية التعليمية التعلمية كما هو الحال في طرائق:

1 ـ المناقشة

تحظى هذه الطريقة بتقدير كبير من العاملين في مجال التعليم عامة وتعليم الكبار بشكل خاص. كما وأنّها تأتي في طليعة الطرق المستخدمة في برامج تعليم الكبار في العالم. ومعلوم أنّ «المناقشة هي أن يشترك المدرس مع المتعلمين في فهم وتحليل وتفسير وتقويم موضوع أو فكرة أو عمل أو مشكلة ما، وبيان مواطن الاختلاف والاتفاق فيما بينهم من أجل الوصول إلى قرار»[1].

وقد تأخذ المناقشة أحياناً «شكل الحديث الذي يلعبه رائد المناقشة وتعطيه بعض الأسئلة التي يثيرها الرائد أو يوجهها المستمعون. وأحياناً أخرى تأخذ شكل الحوار الحر الأصيل الذي يجري بين أعضاء الجماعة. وهي في أحسن أشكالها إلتقاء عدد من العقول حول مشكلة أو قضية أو مسألة لتدريسها دراسة عميقة مستفيضة بقصد الوصول إلى حل، والاهتداء إلى رأي، أو وضع للعمل. وللمناقشة عادة رائد وظيفته المعاونة في بدء المناقشة، وإحاطتها بالمناخ الملائم وتوجيهها إلى الخط السليم»[2].

ومن ينظر إلى الموقف التعليمي يلاحظ أنّه يقوم أصلاً على الاتصال اللغوي الذي يمكن أن يتم من خلال أوجه ثلاثة: **أولاها**: أن يقوم المعلم بتوجيه الحديث إلى المتعلمين. **وثانيها**: أن يقوم المتعلمون بتوجيه الحديث إلى المعلم. **وثالثها**: أن يتبادل الدارسون والمعلم الحديث والاستماع إلى بعضهم البعض، وهذه هي المناقشة[3].

---

(1) علي أحمد مدكور: **منهج تعليم الكبار، النظرية والتطبيق**، ص: 220.

(2) محمود رشدي خاطر: **طرق تعليم الكبار وإمداداته**، ص: 9.

(3) علي أحمد مدكور: «**المناقشة وأهميتها في تعليم الكبار**»، **مجلة التربية المستمرة**، المنامة، م.

وكان استخدام رسول الله ﷺ لهذه الطريقة عن حكمة، في إطار قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[1]. ومعلوم أنّ «الجدل القائم على العلم هو نوع من المناقشة تدور بين سائل ومسؤول ويكون فيه المسؤول أجلّ من السائل ويتوفر فيه قوة الحجة والبلاغة»[2].

وقد استعمل الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم هذه الطريقة في التعليم، فكانوا يسألون ويشجعون الناس على السؤال حتى يتم التفاعل وتتحقق الغاية من التعليم. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «**شفاء الجهل السؤال**»[3]، وأنّ «**العلم خزانة مفتاحها السؤال**»[4].

ومن يتحقق في سيرة الرسول ﷺ التعامية لصحابته رضوان الله عليهم يجد أنّها «كثيرة هي المفاهيم التي أوصلها إلى أصحابه عن طريق السؤال أولاً، حتى إذا سئلوا أعملوا فكرهم محاولين التوصل إلى الإجابة. فإمّا أجابوا وإما عجزوا، ويكونون حينئذٍ قد تلقوا درساً في ضرورة التفكير الشخصي والاستقلال العقلي في الفهم والاستنباط ثم يقرّهم على جوابهم أو يصحح لهم إجابتهم»[5]. ومن أمثلة هذه الطريقة قوله ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**»[6] وقوله: «**أتدرون من المفلس.؟**»[7] إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية القائمة على السؤال والجواب.

وفي حديث عن معاذ بن جبل قال: «قال رسول الله ﷺ: «**أتدري ما حق الله تعالى على العبد؟**» فقال الله ورسوله أعلم. قال: «**يعبدون الله لا يشركون به**

ع.ت.ث.ع، مركز تدريب قيادات تعليم الكبار لدول الخليج بالبحرين، سنة 5، عدد 80، حزيران 1987 م، ص: 46.

(1) سورة: النحل، الآية: 125.

(2) أمينة أحمد حسن: **نظرية التربية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في عهد الرسول**، ص: 246.

(3) ابن قتيبة الدينوري: **عيون الأخبار**، 2/ 122.

(4) ابن قتيبة الدينوري: م.ن، ص. ن.

(5) فريد الأنصاري: **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**، ص: 76.

(6) مسلم: **صحيح مسلم**، 4/ 2001.

(7) مسلم: م.ن، 4/ 1997.

شيئاً. قال: أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك؟» فقال الله ورسوله أعلم، قال: **«أن لا يعذبهم»**[1].

ومن الشواهد المعبّرة عن هذه الطريقة التعليمية أيضاً الحديث الشريف المروي عن الرسول ﷺ، والذي يدور فيه حوار بين جبريل عليه السلام والرسول ﷺ حول الإيمان والإسلام والإحسان وموعد الساعة[2].

وكان الرسول ﷺ أيضاً يحاور لإقناع الآخر وإقامة الحجة. ومن أمثلة ذلك ما روي عن الشخص الذي أتى الرسول ﷺ ليدخل الإسلام شريطة أن يبيح له الزنا. فقال له الرسول ﷺ: **«أتحبه لأمك»** فقال: لا يا رسول الله جعلني الله فداك. فقال رسول الله ﷺ: **«ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»**. قال: **«أفتحبه لابنتك»**، قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك. فقال: **«ولا الناس يحبونه لبناتهم»**. قال: **«فتحبه لأختك»** قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: **«ولا الناس يحبونه لأخواتهم»**[3]. وهنا أدرك الرجل خطأ ما ذهب إليه نتيجة الحوار الذي أداره الرسول ﷺ بهدوء وعقلانية، ونجح من خلاله بإقناعه ضرورة التراجع عن موقفه، والإقرار بصوابية الإلتزام بمبدأ التعامل بالمثل الذي دعاه إليه.

فالسؤال بالنسبة للرسول ﷺ غالباً ما كان مفتاحاً للحوار والمناقشة. فلقد روي «عن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة (101 هـ/ 718م) عن أبيه، ذكر أنّ النبي ﷺ قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه أو بزمامه، قال: **«أي يوم هذا؟»** قال: فسكتنا حتى ظننا أنّه سيسميه سوى اسمه، قال: **«أليس يوم النحر؟»** قلنا: بلى، قال: **«فأي شهر هذا؟»** فسكتنا حتى ظننا أنّه سيسميه بغير اسمه فقال: **«أليس بذي الحجة؟»** قلنا: بلى، قال: **«فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب، فإنّ الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه»**[4].

ولقد حذا الصحابة رضوان الله عليهم حذو الرسول في استعمال أسلوب

---

(1) أحمد بن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 5/ 230.
(2) انظر: **مسلم**، م.س، 1/ 37.
(3) البيهقي: **شعب الإيمان**، 4/ 362.
(4) البخاري: **صحيح البخاري**، 1/ 45.

السؤال والمناقشة في تعليم المسلمين. فعن ابن عباس ﷺ قال: «كان عمر بن الخطاب إذا دعا الأشياخ من أصحاب محمد ﷺ دعاني معهم وقال: لا تتكلم حتى يتكلموا. قال: فدعانا ذات يوم، أو قال: ذات ليلة، فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: في ليلة القدر ما قد علمتم: «**التمسوها في العشر الأواخر وتراً**» ففي أي الوتر ترونها؟ فقال: بعضهم تاسعة، سابعة، خامسة، ثالثة، فقال لي: يا ابن عباس ما لك لا تتكلم؟ فقلت: إن شئت تكلمت، قال: ما دعوتك إلّا لتتكلم، فقلت: أقول فيها برأيي؟ فقال: عن رأيك أسألك. فقلت: إنّي سمعت الله تبارك وتعالى أكثر ذكر السبع فقال: السموات السبع والأرضون السبع حتى قال: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾[1]. فالحدائق كل ملتف وكل ملتف حديقة، والأب ما تنبت الأرض مما لا يأكل الناس. فقال عمر: أعجزتم أن تقولوا مثلما قال هذا الغلام الذي لم تشتق شؤون رأسه ثم قال: إني كنت نهيتك أن تتكلم فإذا دعوتك معهم فكلم»[2].

وهكذا فإنّ الصحابة كانوا يشجعون المسلمين على الحوار والمناقشة في الدراسات الشرعية حيث كانت تطرح المسألة للحصول على أجوبة المتعلمين، وكان الإمام أبو حنيفة من المعجبين بهذه الطريقة حيث تبناها في تدريسه[3]، شريطة أن لا يكون الهدف «من المباحثة إلزام الخصم وقهره فلا تحل وإنّما يحلّ ذلك لإظهار الحق»[4].

فالإمام أبو حنيفة كان يعتمد هذه الطريقة لاستخراج الأحكام في جو مفعم بالحرية مشجع للطلاب للتعبير عمّا في أنفسهم من آراء. وكان منهجه في ذلك يقوم على عرض المسألة ليبدي كل تلميذ ما عنده في حكمها، فإذا اتفقوا على شيء أمر أحدهم أن يكتبه[5].

---

(1) سورة: عبس، الآيات: 26 ـ 31.
(2) الخطيب البغدادي: **الفقيه والمتفقه**، 2/ 133.
(3) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 12/ 308.
(4) الزرنوجي: **تعليم المتعلم طريق التعلم**، ص: 103.
(5) محمود بن محمد بن عرنوس: **تاريخ القضاء في الإسلام**، ص: 40.

وللحوار آداب على الطالب أن يراعيها بحيث يختار الوقت المناسب لإلقاء السؤال، فلا يقاطع مدرّسه وهو يتكلم ولا زميله وهو يسأل[1]. ومن يرجع إلى حديث الإيمان والإسلام والإحسان، يجد كيف أنّ الرسول ﷺ لم يقاطع جبريل قط. وإنّما كان يتكلم عندما يفرغ جبريل عليه السلام من كلامه[2].

ويشير ابن جبير (614 هـ/ 1217م) إلى مثل هذا الأسلوب في المناقشة عندما يتحدث عن زيارته لبغداد وحضوره في النظامية خطبة الشيخ الإمام رضي الدين القزويني (590 هـ/ 1194 م)، رئيس الشافعية وفقيه النظامية، الذي ما أن انتهى من شروحاته وتعليقاته حتى «رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصّر وتقدم وما تأخر، ودفعت إليه عدّة رقاع منها فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب عن كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها[3].

ومن آداب الحوار أيضاً حسن النيّة والابتعاد عن التشنج والغضب لأنّ «المشاورة إنّما تكون لاستخراج الصواب وذلك إنّما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف ولا يحصل بالغضب والشغب[4].

وليس من العيب بشيء أن يعاود المتعلم المؤال، ويراجع مستفسراً عن المسألة المطروحة حتى يدرك معانيها لطالما أنّ ذلك يحصل ضمن «آداب المحاورة والنقاش. فعائشة رضي الله عنها «كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلّا راجعت فيه حتى تعرفه، وأنّ النبي ﷺ قال: «**من حوسب عُذّب**»، قالت عائشة فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[5] [الإنشقاق: 8] قال: فقال: «**إنّما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك**»[6].

وهكذا فقد كان للمناقشة آدابها التي تكفل لطرفي العملية التعليمية حقوقهما واحترامهما في مناخ من الحرية يحقق للطالب أعلى درجات الاستفادة. وكما أنّ من

(1) ابن الحاج العبدري: **المدخل**، 1/ 57.
(2) انظر: مسلم، **صحيح مسلم**، 1/ 37.
(3) ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ص: 195.
(4) الزرنوجي: **تعليم المتعلم طريق التعلم**، ص: 103.
(5) سورة: الانشقاق، الآية: 8.
(6) البخاري: **صحيح البخاري**، 1/ 61.

حق التلميذ على المعلم أن لا يمنع عنه العلم الذي هو حق له وأن يحترمه، ولا يهزأ برأيه فإنّ «من حق العالم ألاّ تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنّته في الجواب وأن لا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشين له سراً»[1].

فإذا قُدِّر للمناقشة أن تحصل في مثل هذا المناخ الحافز على التعلم، فإنّها بلا شك ستكون من أخصب طرق التعليم وأكثرها فعالية، لأنّها تتمتع بعدد من المزايا التي جعلت التربويين يفضلونها على غيرها من الطرق. ومن هذه المزايا «أنّها تدفع المتعلم إلى أن يقوم بدور إيجابي في عملية التعلم، وإنّها تقيم التعليم على أساس الخبرات الفعلية للدارسين، وأن الآثار التعليمية التي تحدثها تتميز بنوع من الثبات، وأنها تتيح الفرصة لتنمية الإتجاهات السليمة نحو التعاون والعمل الجماعي واكتساب المهارات التي تتطلبها ممارسة الأساليب الديقراطية في حل مشكلات الجماعة. أمّا عيوبها فيذكر ناقدوها أنها تضيع كثيراً من الوقت، وأنها لا تصلح إلّا مع الجماعات الصغيرة، وأنها محدودة بالموضوعات التي تدور حول المشكلات والقضايا الخلافية، وأنّها تفتقر في كثير من الأحيان إلى الرواد المدربين الذين يشجعون كل عضو على أن يعطي ما عنده، ويساعدون الجماعة على أن تمضي قدماً نحو الهدف الذي تبتغيه»[2].

وعلى الرغم من العيوب التي قد يثيرها البعض إلّا أنّ ذلك لا يقلل من القيمة التربوية لهذه الطريقة التي تعتبر «من أهم ألوان النشاط التعليمي للكبار والصغار على السواء»[3]، لما لها من دور في تقوية الحجة وتنمية القدرة على التعبير، والتعويد على الثقة بالنفس مما يجعل المتعلم قادراً على المناقشة وإحقاق الحق، وبذلك يستطيع أن يقوم بدوره كإنسان له حق وعليه واجبات.

وخلاصة القول: إنّ أسلوب الحوار والنقاش من أساليب التربية الناجحة. وقد كان الرسول ﷺ حريصاً على تعليم الصحابة الكرام بهذه الطريقة. وما الموقف

---

(1) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم وفضله**، 1/ 129.
(2) محمود رشدي خاطر: **طرق تعليم الكبار وإمداداته**، ص: 9.
(3) علي أحمد مدكور: **منهج تعليم الكبار**، ص: 220.

التعليمي ـ الذي حاوره فيه جبريل بشأن الإيمان والإسلام والإحسان على مرأى ومسمع من الصحابة الذين كانوا يتابعون بكل لهفة وحماس ـ إلّا نموذج تعليمي كي يتبعوه في منهجهم التعليمي فيما بعد.

2 ـ المناظرة

تعتبر المناظرة من أهم طرائق تعليم الكبار بمستوياته العليا؛ لأنها غالباً ما كانت تتم بين معلم ومتعلم أثناء الدرس. فإذا كان طرفا المناقشة هما الأستاذ والطالب فإنّ طرفي المناظرة هما أستاذان، وقد يكونا أديبين أو لغويين أو شاعرين أو طبيبين... إلخ.

وتعتبر المناظرة من أقدم طرائق التعليم التي استخدمها المسلمون، وكان الجدال الذي يدور بين الرسول ﷺ، وبين أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب الرأي والبرهان بمثابة نواة هذه الطريقة التعليمية، التي ما لبثت أن تطورت فيما بعد عندما أصبحت «المناظرة في القرن الثاني هي الوسيلة المفضلة بين الفقهاء لاستنباط حقائق الفقه، واستخراج أصوله وقواعده... وهذا الشافعي يضع كتابه (جماع العلم) وكله يدور على أسلوب الجدل والتناظر فيلقي السؤال على خصمه، ويتلقى الاعتراف منه ويرد كل منهما على الآخر»[1]. ويبدو أنّ هذه الطريقة مهدت للبحث العلمي المنظم عند المسلمين فيما بعد. ولا يخفى مدى ولع علماء المسلمين بها. «حتى إنّ المعتزلة جعلوا المناظرة والمجادلة، وهذا النوع من الثقافة ركناً كبيراً من أركان الإسلام»[2].

ولشدة تقدير علماء المسلمين لهذه الطريقة وإدراكهم لأهميتها لم يكن غريباً أن يعتبروها من أفضل طرائق التدريس إن لم تكن أفضلها على الإطلاق. وهو ما يفهم من كلام ابن خلدون الذي يعزي تردي الحالة الفكرية في أيامه لجهل المعلمين بطرائق التدريس، وخاصة طريقة المناظرة التي يعتبرها أساساً في عملية الفهم والقدرة على التعبير، وبالتالي حصول الملكة العلمية والحذق في العلوم حيث يقول: «وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة، والمناظرة في المسائل

(1) محمد عبد الرحيم غنيمة: **تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى**، ص: 204.
(2) أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، 2/ 129.

العلمية فهو الذي يقرب شأنها، ويحصّل مرامها فنجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون. وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعلم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنّه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم. وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده وإلاّ فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك»[1].

وإذا كان ابن خلدون يعيب على أهل المغرب تغليب الحفظ على المناظرة، فإنّ الزرنوجي[*] بدوره يقدم المناظرة على التكرار ويقول: «وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار لأن فيه تكراراً وزيادة»[2].

والغزالي الذي ناظر العلماء في مجلس نظام الملك وظهر عليهم[3]. يرى أنّ المناظرة حتى تكون وسيلة تعليمية ناجحة تسهم في التعاون على طلب الحق من الدين لا بد أن تراعي شروطاً وعلامات ثماني يمكن إيجازها فيما يلي[4]:

1 ـ أن لا يشتغل بالمناظرة التي هي من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان. ومن عليه فرض فاشتغل بفرض كفاية، وزعم أنّ مقصده الحق فهو كذاب.

2 ـ أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره فقد عصى.

3 ـ أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما. وأمّا من ليس له رتبة الاجتهاد فله أن يفتي فيما يسأل عنه ناقلاً عن مذهب صاحبه، ولكن في حال ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه.

---

(1) ابن خلدون: **المقدمة**، ص: 432.

(*) من تلامذه الفرغاني له كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم كان حيًّا قبل عام 593/ 1196 م.

(2) الزرنوجي: **تعليم المتعلم طريق التعلم**، ص: 104.

(3) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، 4/ 103.

(4) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 56 وما بعدها.

4 ـ أن لا يناظر إلّا في مسألة واقعية أو قريبة الوقوع فإنّ الصحابة ﷺ ما تشاوروا إلّا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض.

5 ـ أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين وذلك دركاً للحق وتحاشياً للرياء.

6 ـ أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معاوناً لا خصماً ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق أسوة بالصحابة رضوان الله عليهم. فعمر ﷺ عندما نبهته امرأة على الحق وهو في خطبته على ملأ من الناس قال أصابت امرأة وأخطأ عمر.

7 ـ أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال فهكذا كانت مناظرات السلف.

8 ـ أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم.

وفي الختام يلفت الغزالي إلى أنّ «المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل، والشرف، والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي مبلغ جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس»[1].

ويعتبر الغزالي أنّ العلماء بشكل عام، وبالمناظرة بشكل خاص على ثلاثة أنواع «إما مهلك نفسه وغيره وهم المغرمون بطلب الدنيا والمقبلون عليها، وإمّا مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً وإمّا مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصد في الباطن قبول الخلق وإقامة الجان، فانظر من أي الأقسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له؟ فلا تظنن أنّ الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل»[2].

(1) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 58.
(2) الغزالي: م. ن، 1/ 61.

ولقد حظيت المناظرة بقدر كبير من الأهمية عند المسلمين «وكان للخلفاء مجالس مناظرات كثيرة ولا سيما المأمون، فقد كان مثقفاً واسع الثقافة يجيد فروعاً كثيرة من العلوم وفيها كلها يناظر»[1].

فكان من الطبيعي إذن أن تكتسب المناظرة قيمة علمية متقدمة مما جعلها «تدور على أعلى صعيد بين فقهاء المذاهب المختلفة، ويشارك فيها الأساتذة والمتبحرون من الطلاب مشاركة فاعلة بينما يظل سائر الحاضرين منصتين»[2] ولشدة اهتمام العلماء بهذه الطريقة أصبحت المناظرة «الأسلوب الشائع في مختلف العلوم وحتى الشعراء عرف عنهم أنهم كانوا يناظرون مع بعضهم بعضاً في مثل هذه الاجتماعات»[3]. والحقيقة أنّ أسلوب المناظرة شكّل مرتكزاً رئيسا من مرتكزات تعليم الكبار في مستوياته المتقدمة الخاصة بالتعليم العالي المستمر. ولقد تجلى ذلك زمن الدولة العباسية.

3 ـ المراسلة

تعتبر طريقة المراسلة اليوم من أكثر الطرق استخداماً لتعليم الكبار في كثير من بلدان العالم. وتقوم هذه الطريقة على ثلاثة مرتكزات: **أولاً**: توفير المادة التعليمية المنظمة المبرمجة. **ثانياً**: إقامة نظام ناجح للمراسلة. **وثالثاً**: إعداد جهاز خاص مهمته حل التمرينات والاختبارات وتزويد المتعلمين بالتوجيهات اللازمة.

ولقد استخدم المسلمون هذه الطريقة منذ نشأتهم الأولى، وكانت بسيطة تقوم على حب المعرفة عند أبنائهم الذين كانوا لا يترددون في أن يسألوا عن أية قضية أو موضوع قد يصعب عليهم. وفي حال بعدت الشقة بين الأستاذ وتلميذه لم يكن يجد الأخير حرجاً في أن يبعث بسؤاله كي يحصل على جواب للمسألة التي

---

(1) أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، 2/ 57.

(2) جورج مقدسي: «**مؤسسات العلم الإسلامي ببغداد**» في **مجلة الأبحاث**، بيروت، الجامعة الأميركية، السنة 14، الجزء 3، أيلول 1961، ص: 292.

(3) منير الدين أحمد: «**دور المجالس والحلقات في النظام التربوي الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي**» في **التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 1/ 311.

تشغل باله. فرسالة «أيها الولد» كانت جواباً لسؤال تلقاه الإمام الغزالي من تلميذ «اشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع دقائق العلوم، واستكمل فضائل النفس، ثم إنه تفكر يوماً في حال نفسه وخطر على باله فقال: إني قرأت أنواعاً من العلوم. وصرفت ريعان عمري على تعلمها وجمعها، والآن ينبغي أن أعلم أي نوعها ينفعني ويؤنسني في الآخرة وأيها لا ينفع حتى أتركه... فاستمرت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام محمد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ استفتاء وسأل عن مسائل والتمس منه نصيحة ودعاء. قال: وإن كانت مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره تشتمل على جواب مسائلي لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي وأعمل بما فيها مدة عمري إن شاء الله تعالى. فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه جواباً»[1].

ولم يقتصر هذا النوع من الرسائل التعليمية على الطلاب وأساتذتهم، وإنّما تعدى ذلك ليكون بين العلماء أنفسهم وبين الحكام وعامة الشعب من جهة والعلماء من جهة أخرى. فكان إذا ما اشتهر عالم بفن أو علم في أي بلد إسلامي «تأتيه الرسائل من جميع الأقطار تسأله في مسائل هامة في التفسير أو النحو أو الفقه فيجيب الأستاذ بأجوبة مختلفة»[2]. فهذا أبو جعفر ملك سجستان يكتب إلى أبي سعيد السيرافي (368 هـ/ 979م) كتاباً «سأله عن سبعين مسألة في القرآن، ومائة كلمة في العربية، وثلاثمائة بيت من الشعر... وأربعين مسألة في الأحكام، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين»[3].

ولقد اعتمد أبو حيان التوحيدي (400 هـ/ 1010م) هذه الطريقة التعليمية. ويروى أنّه بعث «إلى ابن مسكويه (421 هـ/ 1030م) بكتاب يشتمل على جملة أسئلة مما احتار فيها. بعضها لغوي، وبعضها ديني، وبعضها أخلاقي، وبعضها اجتماعي. ووضع هذه الأسئلة في كتاب سماه الهوامل. **والهوامل**: هي الإبل المهملة السائمة.

---

(1) الغزالي: **أيها الولد**، ص: 86.
(2) أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، 2/ 227.
(3) أبو حيان التوحيدي: **الإمتاع والمؤانسة**، 1/ 130.

فرد عليه ابن مسكوية بكتاب يجيب فيه على أسئلته سؤالاً سؤالاً وسماه الشوامل. كأنه شمل الهوامل وضبطها»[1].

وقد كانت هناك رسائل بين الجنيد (297 هـ/ 909م) وأبي بكر الكسائي (189 هـ/ 805م) وكانت كتاباتهم بعيدة عن ذوق العامة لأنّهم «كانوا يتكاتبون بما يشق فهمه على عامة الناس»[2].

ولا يخفى أنّ رسائل إخوان الصفاء قد جاءت في هذا السياق التعليمي الخاص بالكبار. حيث إنّ جماعة الإخوان استعملوا الرسائل في تعليمهم أتباعهم الذين لم يكن بمقدورهم أن يحضروا مجالسهم. وكان هؤلاء منتشرين بين مختلف فئات الشعب. وقد شكلت الرسائل الاثنين والخمسين التي سميت برسائل إخوان الصفاء المادة التعليمية التي طالما دعوا «الأخ حيثما كان في البلاد لأنّ ينظر فيها إذا لم يكن يستطيع الحضور إلى مجالسهم وسماع محاوراتهم ومناقشاتهم، ونتيجة لبعد الإخوان عن مركز الدعوة في البصرة، فإنهم كانوا يقومون بإرسال هذه الرسائل إليه، كي تتاح له قراءتها معتمداً في هذا على نفسه، ومجهوده الشخصي ما أمكن إلى هذا سبيلاً»[3].

فالمراسلة كما يبدو لم تكن حكراً على فئة دون أخرى، وإنّما كانت طريقة من طرائق التعليم التي لجأ إليها الطلاب، والحكام، والعلماء، والعامة عندما كانت تدعو الحاجة لذلك. فعن طريق المكاتبات تمكن الجميع من أن يتعلموا ما يشاءون وحينما يريدون.

ب ــ طرائق التعلم الذاتي:

وهي التي تقوم على جهود المتعلم بحيث يقوم المتعلم بتعليم نفسه بنفسه، أو يكون فيها دور المعلم محدوداً جداً، ومن هذه الطرائق:

---

(1) أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، 2/ 226.
(2) زكي مبارك: **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق**، ث2/ 80.
(3) نادية جمال الدين: **فلسفة التربية عند إخوان الصفاء**، ص: 254.

1 ـ القراءة

استخدمت هذه الطريقة في مراحل التعليم الأولي والعالي على حد سواء. وكانت على مستوى التعليم الأولي (الأساسي) لصيقة بتعليم القرآن الكريم ومبادىء المهارات الأولى لتلاوته، وبالتالي اتقان القراءة والكتابة بشكل عام حتى يتمكن المتعلم من الاتصال بالكتب وكل ما هو مخطوط أو مطبوع بقصد الإفادة أو الاستماع. فبالنسبة لتعليم القرآن الكريم كانت القراءة على الشيخ «هي المستعملة سلفاً وخلفاً»[1]. وكان ذلك يتم من خلال قراءة المعلم لآيات القرآن الكريم، قراءة نموذجية تتصف بالخشوع وجودة الإلقاء، يتبعه التلاميذ بعدها فيقرأون واحداً تلو الآخر حتى يتقنوا التلاوة. وفي حال كان الوقت ضيقاً يكتفي المعلم بأن يعيدوا القراءة عليه بشكل جماعي. «ولأن قراءة المعلم النموذجية خطوة جوهرية كان لا بد من أن يراعي الالتزام بقواعد التجويد الأساسية»[2] كالإظهار والإقلاب والإدغام والإخفاء وغيرها من أحكام التلاوة. «ويحكى أن الشيخ شمس الدين ابن الجزري(*) لما قدم القاهرة وازدحمت عليه الخلق لم يتسع وقته لقراءة الجميع فكان يقرأ عليهم الآية ثم يعيدونها عليه دفعة واحدة فلم يكتف بقراءته»[3].

وكانت القراءة بعيداً عن تعليم القرآن الكريم «وسيلة لتدريس ورواية عمل علمي ليس من انتاج الأستاذ نفسه في غالب الأحيان»[4] ومعلوم أنّ «أكثر المحدثين يسمونها (عرضاً) من حيث أنّ القارىء يعرض على الشيخ ما يقرؤه. كما يعرض القرآن على المقرىء. وسواء كنت أنت القارىء، أو قرأ غيرك وأنت تسمع، أو قرأت من كتاب، أو من حفظك، أو كان الشيخ يحفظ ما يقرأ عليه أو لا يحفظه لكن يمسك أصله هو أو ثقة غيره»[5].

غير أنّ القراءة مع مرور الوقت تطورت وأصبحت أفضل وسيلة للتعلم الذاتي

---

(1) طاش كبرى زادة: **مفتاح السعادة**، 2/ 401.
(2) محمد عبد القادر أحمد: **طرق تعليم التربية الإسلامية**، ص: 217.
(*) محمد بن عبد الله شمس الدين الجزري الشافعي (بعد 660 هـ/ بعد 1262 م).
(3) طاش كبرى زادة: م. س، 2/ 402.
(4) محمد عبد الرحيم غيمة: **تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى**، ص: 186.
(5) سعيد إسماعيل علي: **الأصول الإسلامية للتربية**، ص: 386 ـ 387.

على الإطلاق، وذلك عندما أصبح طلاب العلم لا يكتفون بالقراءة على معلم، وإنّما يقرأون على أنفسهم وهو ما يصرح عنه ابن سينا في قوله: «ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق»[1].

ولقد كان المصري[*] «يشتري من الوراقين الكتب التي لم يكن سمعها ويسمع فيها لنفسه»[2]. ولا يخفى أنّ الغزالي بدوره قد وقف على علوم الصوفية خلال قراءته لكتبهم دون القراءة على أستاذ أو شيخ. وهذا ما يصرح به قائلاً: «فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي. وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، وغيرهم من المشايخ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع»[3].

وهكذا فإنّ القراءة على النفس أصبحت من العوامل المساعدة للقراءة على الغير، إضافة إلى أنّ القراءة لم تعد تقتصر على القرآن الكريم، والحديث الشريف، وإنّما امتدت لتستوعب كل ما هو مكتوب أو مخطوط في ذلك الوقت، ومن السمات الظاهرة لهذه الطريقة جدية المتعلم في اختيار المادة التعليمية التي يرغب في تعلمها سواء كان يقرأ على نفسه أو على غيره. فإذا كان يقرأ على غيره «يعرض الطالب أو غيره الكتاب الذي يراد درسه بحضور الشيخ، وحينئذ يتحقق اطلاع الشيخ على المعلومات التي احتواها الكتاب أو الكتب التي تدرس بإشرافه وحضرته، وبعد أن تتم عملية التعليم يصح للتلميذ أن يروي الكتاب أو الكتب التي درسها على شيخه»[4]. ولا شك أنّ الذي شجع طريقة القراءة هو ازدهار الحركة العلمية، وكثرة التراجم والمؤلفات وانتشار الفهارس وقوائم الكتب والمكتبات. ولقد كانت لهذه التطورات انعكاسها الإيجابي على حركة التربية المستمرة وتعليم الكبار.

---

(1) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 3/ 4.

(*) محمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن أبو الفتح (440 هـ/ 1048م).

(2) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 1/ 354.

(3) الغزالي: **المنقذ من الضلال**، ص: 131 ـ 132.

(4) عبد الله فياض: **تاريخ التربية عند الأمامية وأسلافهم من الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي**، ص: 154.

2 ـ المذاكرة

إنّ عناية الصحابة بالحديث وحفظه أكسب المذاكرة قيمة كبيرة جعلها ترقى إلى أرقى المراتب في الإسلام، فكانت بنظر البعض في مقام العبادات المفروضة، إذا لم تكن تتقدمها. فعن المعتمر بن سليمان (187 هـ/ 803 م) عن أبيه قال: بأنّه كان يتذاكر الفقه والسنة مع آخرين فقال بعضهم: «لو قرأت علينا سورة من القرآن فقال: ما أنا بالذي أزعم أنّ قراءة القرآن أفضل مما نحن فيه»[1]. وعن ابن مسعود ﷺ قال: «الدراسة صلاة»[2]. وعن الرسول ﷺ أنه قال: «**لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير لك من أن تصلي مائة ركعة**»[3].

ولقد أجمع الصحابة على أهمية أسلوب المذاكرة وأثره في ترسيخ الأحاديث في الذهن وبالتالي دراستها. ولما كان من الصعب على المتعلم أن يحتفظ بما تعلم بمجرد السماع، كان الصحابة يلتقون ليتذاكروا ما أخذوه عن الرسول بعد انفضاض مجلسه كما في رواية أنس بن مالك ﷺ حيث يقول: «كنا مع النبي وربما كانوا نحواً من ستين إنساناً فيحدثنا رسول الله ﷺ ثم يقوم فنراجعه بيننا هذا وهذا فنقوم وكأنما قد زرع في قلوبنا»[4].

والمذاكرة لم تكن تتم خلال الجلسة التعليمية وإنما كانت تعقب هذه الجلسات، سواء كان ذلك في عهد الرسول كما سبق وذكر، أو زمن التابعين وأتباعهم كما يروى عن أبي صالح السمان[*]، أنه قال: قال حدثنا ابن عباس يوماً بحديث فلم نحفظه فتذاكرناه بيننا حتى حفظناه. وعن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى (283 هـ/ 896 م) عن عطاء (114 هـ/ 732م) قال: «كنا نكون عند جابر بن عبد الله (78 هـ/ 697م) فيحدثنا فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه»[5].

---

(1) الخطيب البغدادي: **الفقيه والمتفقه**، 1/ 17.
(2) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم**، 1/ 22.
(3) ابن عبد البر: م. ن، 1/ 25.
(4) الخطيب البغدادي: م. س، 2/ 127.
(*) أبو صالح ذكوان بن عبدالله السمان، ويقال له: الزيات روى عنه مالك والثوري وشعبة وغيرهم.
(5) محمد عجاج الخطيب: **السنة قبل التدوين**، ص: 160.

ولم تكن جلسات المذاكرة حكراً على أحد دون الآخر وإنّما كانت مفتوحة للجميع، وكانت في بعض الأحيان تتم صدفة، كأن يلتقي علماء أثناء زيارتهم لمكان ما مع علماء ذلك المكان فيفضلون تناول الحديث معهم في حلقات المذاكرة على تناوله في مجالس التدريب الشكلية[1]. وفي أحايين أخرى كانت تنظم جلسات خاصة لذلك[2]. ولقد ذكر ابن المديني (230 هـ/ 845م) أنّه تداول الحديث مع أحمد بن حنبل على مدى أربعين سنة في كل رحلة كان يقوم بها إلى بغداد فقال: «كنت قدمت إلى بغداد منذ أربعين سنة كان الذي يذاكرني أحمد بن حنبل»[3].

ومن طالبي العلم من كان يلجأ إلى جاريته أو إلى الغلمان حتى يذاكرهم في حال لم يجد أحداً يحدثه. ومثل هذا ما روي عن الإمام الزهري (124 هـ/ 742م) أنّه كان يبتغي العلم من عروة (93 هـ/ 712م) وغيره، فيأتي جارية له نائمة فيوقظها فيقول لها: حدثني فلان بكذا وفلان بكذا فتقول: مالي ولهذا؟ فيقول: قد علمت أنك لا تنفعين به ولكن سمعت الآن فأردت أن أستذكره. وكان إسماعيل بن رجاء[*] عندما يجد من لا يذاكره الحديث يلجأ إلى غلمان الكتب فيجمعهم ويحدثهم كي لا ينسى حديثه[4].

وفي حال تعذر وجود شخص لتحديثه لم يكن هناك ما يمنع من اللجوء لمذاكرة الحديث مع النفس. فعن إبراهيم النخعي قال: «إنه ليطول عليّ الليل حتى أصبح فألقاهم فربما أدسه بيني وبين نفسي أو أحدث به أهلي[5].

ولا ريب أن المذاكرة مع مرور الوقت سعت لتحقيق أهداف دينية وتعليمية متعددة كتصحيح الأخطاء، ومعرفة الأحفظ، والأضبط والأفقه، وغيرها من الأهداف التي يمكن إيجازها فيما يلي:

---

(1) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 1/ 354، 8/ 94.
(2) الخطيب البغدادي: م. ن، 6/ 310.
(3) الذهبي: **تذكر الحفاظ**، 14/ 182.
(*) إسماعيل بن رجاء بن ربيعة الزبيدي أبو إسحاق الكوفي تابعي من الطبقة الخامسة.
(4) محمد عجاج الخطيب: **السنة قبل التدوين**، ص: 161.
(5) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم**، 1/ 102.

1 ـ الحفظ كما في قول أبي سعيد الخدري (74 هـ/ 693م): تذاكروا الحديث فإن الحديث يهيج الحديث»[1].

2 ـ التفقه ونشر العلم كما في قول عبد الله بن عباس: «رووا الحديث واستذكروه فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولنّ رجل لحديث قد حدثه: قد حدثته مرة. فإنه من كان سمعه يزداد به علماً، ويسمع من لم يسمع»[2].

3 ـ تصحيح الأخطاء كما في قول ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**والشهر تسع وعشرون**» فلما ذكروا ذلك لعائشة، قالت: «يرحم الله أبا عبد الرحمٰن إنما قال: «الشهر يكون تسعاً وعشرين»[3].

والحقيقة أنّ هذه الطريقة لعبت دوراً إيجابياً وبارزاً على الصعيدين: الديني والتعليمي، فعلاوة على اسهاماتها في نشر العلم وتعميمه، فإنّ دورها في ضبط السنة وحمايتها من الضياع لم يكن أقل شأناً من ذلك.

3 ـ الممارسة والعمل

إنّ تكوين الاتجاهات الدينية والاجتماعية وغيرها لا يمكن أن يتم بالوعظ، وإنما من خلال الممارسة والعمل لأنّ «تعود المرء على النظام في الحياة، وعلى ضبط النفس، وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية، وعلى التضحية في سبيل المجموع. وكلها تتطلب مراناً وممارسة يومية تلازم حياة الإنسان ليل نهار»[4].

ولما كان الإسلام قد أولى العلم والمعرفة قيمة عظيمة لأنّه لا يمكن ـ حسب ما جاء في القرآن الكريم ـ أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. فلا عجب إذن أن يكون الإسلام دعوة إلى العمل؛ لأنه يعتبر أن التلازم بين العلم والعمل ضرورة لا غنى عنها لنيل رضا الله تعالى الذي يحذر عباده من أن يخالف قولهم فعلهم. فيقول وهو أصدق القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ

(1) الدارمي: **سنن الدارمي**، 1/ 146.
(2) الدارمي: م. ن، 1/ 147.
(3) أحمد بن حنبل: **مسند الإمام أحمد**، 6/ 51.
(4) محمد فاضل الجمالي: **نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي**، ص: 104 ـ 105.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[1]. لذلك فإنّ المقرّ بالشهادتين لا ينال الفوز، ولا يستحق احترام الإسلام إلّا بالعمل بمقتضاهما. «فإن المرء لا يكون مسلماً حقاً إلّا بالنطق بهما مع فهم مدلولهما والعمل بمقتضاهما، والتزام بقية دعائم الإسلام، لأنهما له كالمفتاح ولا بد لكل مفتاح من أسنان، فأسنانه هنا بقية أركان الإسلام»[2].

وممارسة العبادات في الإسلام عملية تعليمية مستمرة مدى الحياة «تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء، أو إلى خُلُق فاضل أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإسلام»[3]. خليفة الله في أرضه ومحققاً لسعادة الدنيا والآخرة من خلال الالتزام بتعاليمه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[4]. وهو ما ينصح به الرسول ﷺ في قوله: «**اعبدوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم**»[5]. فالرسول ﷺ يدعو لأداء هذه العبادات ـ التي تعتبر أهم أركان الإسلام ـ لأنها «ليست (حركات) شكلية تؤدي كفاية في حد ذاتها. وهي ليست مجرد (طقوس) و(شعائر) تشغل حيزاً من مكان ومن زمان. وإنما هي (وسائط) تقرب الإنسان من الخالق ﷻ وتسمو بهذا المخلوق إلى أرفع ما يطمح إليه من المستويات الدنيوية والدينية وتوثّق بين أفراد الأمة بعضهم ببعض»[6].

ولذلك فإن العبادات من أهم طرق التعليم عند المسلمين لأنها تعلم المسلم تعظيم الخالق، وتهذيب الخلق، والدقة والانضباط، وتنظيم الوقت والتعاون، وتقوية الإرادة، وتعزيز الأخوة بين المسلمين. وكثيراً من الدروس الخاصة بصلاح الفرد والمجتمع، ويأتي في طليعتها ترسيخ العقيدة الإيمانية من خلال التوجه الصحيح إلى الله تعالى للرقي إلى مرتبة الإحسان التي قال فيها الرسول ﷺ:

---

(1) سورة: الصف، الآيتان، 2، 3.
(2) حامد بن محمد العبادي: **من حكم الشريعة الإسلامية**، ص: 19.
(3) عبد الغني عبود: **في التربية الإسلامية**، ص: 157.
(4) سورة: فصلت، الآية: 33.
(5) أحمد بن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 5/ 251، 262.
(6) سعيد إسماعيل علي: **الأصول الإسلامية للتربية**، ص: 304.

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

ولما كانت العبادات مفروضة على المكلفين فإنها تعتبر من أهم طرائق تعليم الكبار في الإسلام لأن هذه الطريقة تكرّس مبدأ التربية المستمرة التي نادى بها الإسلام. إضافة إلى أنه لا غنى عنها لأنها ملازمة للعبادات التي فرضها الله تعالى على كل مسلم عاقل.

وتعتبر هذه الطريقة مدخلاً لتوظيف العلم الوجهة الصحيحة، التي تسهم في تغيير سلوك الإنسان، وتساعده على اكتساب الاتجاهات والمواقف التي لا بد وأن تترجم عملاً صالحاً، حيث تشكل بدورها ثمرة هذا العلم. لذلك نبه علماء المسلمين إلى العلاقة المتلازمة بين العلم والعمل، فقال الإمام أبو حنيفة: «ما العلم إلّا للعمل به»[2]. وقال الإمام الغزالي: «العلم بلا عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون»[3]. وهذا يعني أن ممارسة العمل بحد ذاته وسيلة هامة وفاعلة من وسائل التربية، خاصة إذا كان هذا العمل يستند إلى العمل الواجب «وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة، ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء لا محالة»[4].

فالتعلم عن طريق ممارسة الأعمال أو أداء الفرائض يعوّد المرء على النظام: وضبط النفس والتعاون والتضحية، وكل ذلك يتطلب ممارسة يومية تلازم الإنسان طالما هو حي قادر على القيام بواجباته والتزاماته تجاه ربّه ومجتمعه ونفسه.

4 ـ الرحلة

إنّ ظاهرة السفر لتلقي العلم في بلد من البلدان أو في جامعة من الجامعات ليست وليدة هذا العصر. فلقد حرص المسلمون منذ أيامهم الأولى على قطع المسافات طلباً للعلم على أيدي من كان يشهد له بعلم من العلوم أو فن من الفنون. ولم يكن هذا الحماس للرحلة في طلب العلم وَلِيدُ الصدفة، أو طمعاً في نيل الشهرة، وإنّما كان ينبع من إيمان عميق بالإسلام، الذي طالما شجع على طلب

(1) مسلم: **صحيح مسلم**، 1/ 37.
(2) الزرنوجي: **تعليم المتعلم طريق التعلم**، ص: 65.
(3) الغزالي: **أيها الولد**، ص: 108.
(4) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 191.

العلم واعتبر الرحلة من أجله مهمة عظيمة. يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، أي أنّه «إذا لم يكن نفير الجميع، ولم يكن فيه مصلحة فهلّا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة. ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: ليصبحوا فقهاء، ويتكلفوا المشاق في طلب العلم. ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه... وكان الظاهر أن يقال: (ليعلموا). بدل: (لينذروا) و(ليفقهوا) بدل: (يحذرون) لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض العلم: الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار»[2]. فكانت هذه الآية بمثابة إعلان عام للمسلمين ليهبوا ويسافروا «من قطر إلى قطر في طلب العلم غير مبالين ما يعترضهم من مشقة وعناء وفقر، مع ما في السفر إذ ذاك من صعاب جعلته ـ كما عبروا عنه ـ قطعة من العذاب»[3].

والرحلة في زمن الرسول ﷺ كانت عامة من أجل معرفة تعاليم الدين الجديد. وهل هناك من هو أولى من الرسول ﷺ أن يسافر إليه ليأخذ عنه الدين؟ وهكذا فإن بعضاً ممن كان يسمع بالدين الجديد كان يسافر إلى الرسول ﷺ ليسمع القرآن الكريم ويتعرف على الإسلام، ثم يعود إلى قومه بعد أن يعلن إسلامه كما فعل ضمام بن ثعلبة (*) الذي بعثه قومه إلى النبي ﷺ[4].

وفي المقابل كان هناك رحلات هدفها نشر الدين الإسلامي، وكانت هذه الرحلات بمثابة بعثات تعليمية، توفر إلى حي من الأحياء أو قبيلة من القبائل، بناء على مبادرة من الرسول ﷺ، أو طلب يوجه إليه كي يعلم القوم أمور دينهم. ويروى عن أبي موسى الأشعري: «أنّ رسول ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى ـ رضي الله

(1) سورة: التوبة، الآية: 122.
(2) محمد علي الصابوني: **صفوة التفاسير**، 1/ 586.
(3) أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، 2/ 69.
(*) ضمام بن ثعلبة السعدي من بني سعد بن بكر.
(4) ابن حجر: **الإصابة**، 2/ 202.

تعالى عنهما ـ إلى اليمن وأمرهما أن يعلما الناس القرآن»[1]. فيروي أنس بن مالك (93 هـ/ 712م) أنّه «جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم: القراء... كانوا يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون»[2].

وكان لخروج الصحابة من المدينة وانتشارهم في الأمصار تأثير بالغ في «انتشار العلم وتفرق العلماء، وقد ظهرت تقاليد علمية استمرت راسخة لقرون طويلة، وتركت آثاراً عميقة في تواصل الحركة العلمية في أرجاء العالم الإسلامي، وفي توحيد الآداب والمناهج والتقاليد العلمية، وفي التقريب بين وجهات نظر العلماء الأخرى، وفي إعادة تجميع العلم المنتشر، تلك هي الرحلة في طلب العلم»[3]. في المرحلة التي تلت عهد الرسول ﷺ.

يقول بُسر بن عبيد الله الحضرمي (*) «إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه»[4]، «وكان مسروق (63 هـ/ 683م) يرحل في حرف وأبو سعيد (74 هـ/ 693م) يرحل في حرف»[5].

وروي أنّ أبا أيوب الأنصاري (52 هـ/ 672م) رحل إلى عقبة بن عامر (58 هـ/ 678م) وكان بمصر ليسمع منه حديث «**من ستر مسلماً على خزية ستره الله يوم القيامة**»[6]. ولم يحل رحله حتى رجع إلى بيته في المدينة[7]. وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله تعالى مني تبلغه الإبل لأتيته»[8].

---

(1) الأصبهاني: **حلية الأولياء**، 1/ 256.
(2) ابن سعد: **الطبقات**، 3/ 514.
(3) أكرم ضياء العمري: **«التعليم في عصر السيرة والراشدين»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 1/ 73.
(*) بُسر بن عبيد الله الحضرمي الشامي تابعي، ثقة، حافظ من الطبقة الرابعة.
(4) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم**، 1/ 95.
(5) ابن عبد البر: م. ن، 1/ 94.
(6) ابن عبد البر: م. ن، 1/ 93ـ 94.
(7) ابن عبد البر: م. ن، ص. ن.
(8) الخطيب البغدادي: **الكفاية في علم الرواية**، ص: 402.

ولا يخفى أنّ الحج كان سبباً رئيساً من الأسباب التي ساعدت على انتشار الرحلة كطريقة من طرق التدريس، ذلك لأن الطلبة استطاعوا أن يستفيدوا من قوافل الحجاج والتجار في تحقيق أهدافهم التعليمية بأمان[1]. وقد سهلت هذه القوافل إلى جانب قوافل التجارة الطريق أمام طلاب العلم ليصلوا إلى مراكز العلم التي كانوا يقصدونها. ومن العوامل التي ساعدت على انجاح الرحلات التعليمية أنّ هذه القوافل كانت تتوقف في جميع المدن الرئيسة التي تقع على خط سير الرحلة. ومن أمثلة ذلك رحلة الذهلي (258 هـ/ 872م) الذي ابتدأ من نيسابور وتوجه للدراسة في البصرة والحجاز، والجزيرة، ومصر، وسوريا، وعلّم فيما بعد في بغداد والبصرة ونيسابور[2].

ولم تكن الرحلة حكراً على أصحاب الحديث فقد «رحل علماء اللغة إلى البادية يقيدون اللغة والأدب... ورحل الأدباء إلى نواحي المملكة الإسلامية يأخذون عن أدبائها، ورحل طلاب الفلسفة إلى القسطنطينية وغيرها في طلب الكتب اليونانية للترجمة وكذلك الشأن في كل فرع من فروع العلم»[3].

وقد ساعد على تشجيع الرحلة ما كان يلقاه الطلبة من رعاية أثناء رحلاتهم بفضل التزام الناس بتعاليم الإسلام لجهة البر بأبناء السبيل، ورعاية المسافرين والعطف عليهم. كما وأنّ من تفرّغ للعبادة في الإسلام كان يجد أيضاً العناية والإعانة التامة على ذلك.

ويعبر ابن جبير عن هذا الواقع عندما يتطرق للحديث عن صلاح الدين الأيوبي، وعنايته بالغرباء من المتعلمين الذين كانوا يقصدون الإسكندرية طلباً للعلم فيقول: «ومن مناقب هذا البلد ومفاخره، العائدة في الحقيقة إلى سلطانه، المدارس والمحارس الموضوعة لأهل الطلب والتعبد يفرون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراء ما يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من

(1) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 5/ 313 ـ 314.
(2) الخطيب البغدادي: م. ن، 3/ 415.
(3) أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، 2/ 70.

مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم حتى يشيرون بها من علاج وغذاء»[1].

وحظيت الرحلة بثناء علماء المسلمين ومفكريهم الذين طالما حثوا عليها. وفي هذا يقول داود النبي عليه السلام: «قل لصاحب العلم يتخذ عصاً من حديد ونعلين من حديد ويطلب العلم حتى تكسر العصار وتنخرق النعلان»[2].

وعندما سئل أحمد بن حنبل أيرحل الرجل في طلب العلم أجاب قائلاً: «بلى والله لقد كان علقمة (62 هـ/ 681م) والأسود (75 هـ/ 694م). يبلغهما الحديث عن عمر رضي الله عنه فيمعانه منه»[3].

وفي تبيان مزايا هذه الطريقة وفضلها على العلم والتعلم يقول ابن خلدون «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة. إلّا أن حصول الملكات ورسوخها، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلّطة على المتعلم حتى لقد يظن بعضهم أنها جزء من العلم، ولا يرفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعود المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والإستحكام في الملكات، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[4].

وقصارى القول: إن الرحلة كانت واحدة من طرائق التعليم التي تركت آثاراً طيبة على الصعيد الثقافي والعلمي في المجتمع الإسلامي، فقد كان العلماء

(1) ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ص: 15.
(2) الدارمي: **سنن الدارمي**، 1/ 136.
(3) ابن الصلاح: **علوم الحديث**، 223.
(4) ابن خلدون: **المقدمة**، ص: 541.

والطلاب يتنقلون بين البلدان لأحد ثلاثة أسباب: إمّا طلباً للمعرفة، وإمّا ضبطاً لها، وإمّا سعياً لنشرها. وفي كل هذا خير لأنّه ترجمة عملية للنفير الذي دعا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

ج ــ طرائق العرض والإلقاء:

وهي الطرائق التي تركز على دور المعلم حيث يقوم بعرض الموضوعات المختلفة على المتعلمين أو تلاوة المادة التدريسية بصورة مباشرة ومن أمثلتها:

1 ـ التلاوة (التلقين) والتكرار

تعتبر هذه الطريقة ركيزة التعليم الأولي الأساسي للصغار والكبار على حد سواء. ويبدو أنها سادت ـ في فترة من الفترات ـ لأنّ منهج التعليم بادىء الأمر كان يدور حول حفظ القرآن واستظهاره، وكان ذلك يعتمد على طريقة التلقين والتكرار، حيث كان التلاميذ يقومون بتقليد مُعلميهم والحفظ عنهم.

ولما كان على كل مسلم أن يحفظ شيئاً من القرآن الكريم يساعده على أداء ما فرض عليه من عبادات، فإن الرسول ﷺ كان يتلو: «الآيات كما أنزلت عليه من الوحي ويرددها بعده المسلمون حتى يحفظوها عن ظهر قلب. وطريقة التلاوة هي أمر من الله لرسوله»[2]. فلقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾[3]. وحتى تؤتي التلاوة ثمارها كان لا بد من الحفظ لما له من دور إيجابي في العملية التعليمية التعلمية. وفي هذه قيل: إنّ «أول العلم: الصمت. **والثاني**: الاستماع، والثالث: الحفظ، والرابع: العقل، والخامس: نشره»[4].

وبما أن الناس على مستويات متفاوتة من الفهم والإدراك فإنّ الرسول ﷺ

(1) سورة: التوبة، الآية: 122.
(2) ابن قتيبة الدينوري: **عيون الأخبار**، 2/ 122.
(3) سورة: النمل، الآيتان، 91 ـ 92.
(4) ابن قتيبة الدينوري: م. س، 5/ 122.

استخدم التكرار ليساعدهم على الحفظ في كثير من المواقف التعليمية.

فعن الرسول ﷺ أنه قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»، **ثلاثاً**، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**»، وجلس وكان متكئاً، فقال: «**ألا وقول الزور**»، قال: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[1]. وروي أيضاً أنّه «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال ثم من؟ قال: «**أمك**»، ثم من قال: «**أبوك**»[2].

ولم يقتصر الحفظ والاستظهار على العلوم النقلية. بل تعدى ذلك إلى العلوم العقلية. وهو ما يمكن استخلاصه من قول ابن سينا: «وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب... ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق»[3].

ولقد أولى المسلمون الحفظ أهمية كبيرة في التعليم لإيمانهم بأنّه أسلم لحفظ العلم من الضياع. ففي حال «استودع العلم في الكراريس فقد تفقد الكراريس أو تضيع، وعندئذ يضيع العلم أو ما تعلمونه»[4]. وهو عين ما حصل للإمام الغزالي عندما سلبه العيارون تعليقته إثر عودته من جرجان، فتوسل لمقدمهم أن يعيدها له لأنها لا تشتمل إلّا على الكتب التي هاجر لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، عندها سخر منه مقدم العيارين قائلاً: كيف تَدَّعِي أنّك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليه المخلاة[5]. وكانت هذه الحادثة نقطة تحول في حياة الغزالي العلمية الذي علق قائلاً: إنّ «هذا منطق أنطقة الله ليرشدني به في أمري... فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت ما علقته، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي»[6].

---

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، 3/ 339.
(2) البخاري: م. ن، 8/ 2.
(3) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 2/ 3 ـ 4.
(4) أمينة أحمد حسن، **نظرية التربية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في عهد الرسول**، ص: 240.
(5) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، 4/ 103.
(6) السبكي: م. ن، ص. ن.

والجدير بالذكر أنّ المسلمين في اعتمادهم طريقة التلقين كانوا يحذون حذو الرسول ﷺ الذي كان «يعلم الصحابة عشر آيات من القرآن الكريم، وبعد حفظها وفهم معانيها ينتقل إلى عشر آيات أخرى تعليماً وحفظاً». فعن ابن مسعود أنّه قال: «كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ»[1]. واستمر المسلمون في اعتماد هذه الطريقة على الرغم من انتشار الكتابة فيما بعد. فكانوا لا يتردّدون في أن يكتبوا كل ما يسمعونه أو يحفظوا ما يكتبونه لينفعوا وينفعوا به. ومعلوم أنّ الانتفاع لا يتم إلّا بعد الفهم، والفهم يحتاج إلى شيء من الحفظ.

ويبدو أنّ أكثر الذين اشتغلوا بالعلم اعتماداً على الحفظ هم المحدثون واللغويون الذين لشدة اهتمامهم به اعتبروا درجة «الحافظ» أسمى درجات العالم بالحديث أو المشتغل باللغة. وبنظرهم أنّ «من بلغ الرتبة العليا من الحديث يسمى الحافظ»[2].

ويُروى أنّ الإمام البخاري عندما قدم بغداد أراد أصحاب الحديث أن يمتحنوه للوقوف على مدى حفظه ودرايته فعمدوا «إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم أن يلقوا ذلك على البخاري. فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري: لا أعرفه. فلما علم البخاري أنّهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا... حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه»[3].

وعلى الرغم مما يؤخذ على طريقة التلقين والحفظ إلّا أنها ـ بلا شك ـ كانت ذات أثر إيجابي على الصعيد التعليمي في المجتمع العربي الإسلامي، لأنّها جاءت منسجمة مع أهداف التعليم الإسلامي في الحفاظ على القرآن الكريم والسنّة

(1) الطبري: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، 1/ 35.
(2) السيوطي: **المزهر في علوم اللغة**، 2/ 312.
(3) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 2/ 20 ـ 21.

النبوية الشريفة، فليس غريباً على هذا المجتمع أن يعتمد هذه الطريقة التي كانت وليدة حاجات اجتماعية وثقافية ودينية، ومعلوم أنّ التربية عملية نابعة من حاجات المجتمع.

2 ـ المحاضرة

تعتبر هذه الطريقة من الطرق شائعة الاستعمال في جميع أنواع التعليم وخاصة في برامج محو الأمية وتعليم الكبار. وهي «في جوهرها عرض منظم للأفكار والمعلومات التي تتناول موضوعاً معيناً يقوم المحاضر بتقديمه لمجموعة من الذين يستمعون إليه ويتابعون أفكاره»[1].

وتبعاً لهذه الطريقة يقوم المحاضر بإعداد محاضرته وتدوينها نقطة نقطة «ثم يتكلم عن كل نقطة كلام أستاذ مُتمكن من مادته فيدوّن الطلبة ما يفهمونه من الآراء في مذكراتهم الخاصة. ولم يكن المحاضرون ممن يحفظون محاضراتهم. ويقولون ما لا يفهمون، بل كانوا يفهمون كل فكرة يذكرونها ويشرحونها بوضوح. ولو يكونوا ممن يعتمدون على ما في أيديهم من مذكرات، فإذا أخذت هذه المذكرات منهم وقفوا حَيَارى لا يستطيعون أن يذكروا شيئاً لطلابهم. فقد كانوا علماء حقاً، واسعي الإطلاع لا يحتاجون إلى النظر في كتب أو مذكرات في أثناء المحاضرات»[2].

ولا يخفى أنّ المسلمين الأوائل اعتمدوا على المحاضرة الشفهية اعتماداً كبيراً. وهو الأسلوب الذي اعتمده الرسول ﷺ في توضيح معالم الدين ونشر الإسلام[3].

وقد تطرق ابن خلدون لطريقة المحاضرة وشرحها، وكان له موقف من بعض الممارسات التي رافقت تنفيذ هذه الطريقة كانتقاده للاعتماد على المختصرات والمتون في العلوم، وتشجيعه للسهولة والإسهاب في تناول الموضوعات، ومناداته بالتدرج في العملية التعليمية مراعاة لطبيعة المادة التعليمية والفروق الفردية بين

(1) محمود رشدي خاطر: **طرق تعليم الكبار وإمداداته**، ص: 7.
(2) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 207 ـ 208.
(3) أكرم العمري: «**التعليم في عصر السيرة والراشدين**»، **في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 1/ 74.

المتعلمين. فرأى أنّ على المعلم أن يتدرج في تعليم تلميذه «شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوة عقله أو استعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن... ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين من تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هناك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شدّ فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً إلّا وضّحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه»[1].

فالمحاضر حسب ما سبق كان يعتمد على الإلقاء والتكرار والتدرج ومراعاة الفروق الفردية، حتى يتمكن المتعلم من الحفظ والفهم وخاصة في حلقات الحديث.

ويرى أنصار هذه الطريقة أن الأفضلية لطريقتهم لعدة أسباب منها: قدرتها على تزويد المتعلم بكم كبير من المعلومات في وقت قصير نسبياً، إضافة إلى أنّ المحاضر الناجح بإمكانه أن يكون مصدر إلهام للمتعلمين وقدوة لهم في المثابرة على طلب العلم. غير أنّ ما يخشى منه هو أن تكون هذه الطريقة أحادية الرؤية في حال اعتمدت على خبرة المحاضر دون النظر إلى حاجات المتعلمين، إضافة إلى أنها قد تكون سلبية وتبعث على الكسل والملل فيما لو لم يكن المحاضر بالمستوى المطلوب.

وقد تكون هذه المخاوف صحيحة في حال حافظت هذه الطريقة على السلبية، واقتصرت على الإلقاء ولم تتجاوز إلى السؤال، ومشاركة المتعلمين إيجاباً في العملية التعليمية. غير أنّ المدرس في الإسلام كان إذا فرغ من شرح مسألة على الطلبة سكت قليلاً ليفتح باب المناقشة، ولا بأس بطرح مسائل تتعلق بها عليهم ليمتحن فهمهم وضبطهم فمن فهم شكره ومن لم يفهم تلطف في الإعادة له[2]. والجدير بالذكر أن التركيز على مثل هذه الأنشطة التعليمية التعلمية يقرب هذه

---

(1) ابن خلدون: **المقدمة**، ص: 533.

(2) ابن جماعة: **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، ص: 53.

الطريقة من طريقة المناقشة، ولهذا ليس غريباً أن هناك من ينظر إلى الطريقتين كطريقة واحدة.

3 ـ الإملاء

تعتبر هذه الطريقة من أعرق طرق تعليم الكبار في الإسلام. وقد أكسبها تميزها في ضبطها للحروف والكلمات في الكتب قيمة تعليمية مَكَّنتها من أن تتبوأ أعلى مراتب الرواية. وكان الرسول ﷺ أول من استعمل هذه الطريقة في التعليم حيث كان يملي كتبه على كتابه ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يقول: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد أحفظه. وذكر الحديث وأنّه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال له: «**أكتب**»[1].

وكان كل ما يمليه الرسول ﷺ على كتابه سواء كان وحياً أو حديثاً أو رسالة يقرأ عليه حتى يتأكد ﷺ من صحته وصوابيته. وهذا ما يستدل عليه من كلام أحد طلاب العلم عند أنس إذ يقول: «كنا إذا أتينا أنس بن مالك وكثرنا عليه أخرج إلينا مجالّ من كتب، فقال: هذه كتب سمعتها من رسول الله ﷺ وقرأناها عليه»[2].

وقد حذا المسلمون الأوائل حذو الرسول ﷺ فعقدوا مجالس الإملاء، ومنهم الصحابي واثلة بن الأسقع (83 هـ/ 702 م). فعن معروف الخياط (*) قال: «رأيت واثلة بن الأسقع يملي على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه»[3].

واستمرت مجالس الإملاء في الانعقاد، ومن أشهر الذين عرفوا بذلك: شعبة ابن الحجاج (160 هـ/ 776م)، ووكيع بن الجراح (197 هـ/ 812م)، وعاصم بن علي النعيمي (221 هـ/ 836 م)، وعمرو بن مرزوق الباهلي (224 هـ/ 904 م)، وجعفر بن محمد الفريابي (301 هـ/ 913 م)، وغيرهم.

ومع مرور الوقت تنوعت دروس الإملاء فمنها ما كان «يهدف إلى التوعية

---

(1) القاضي عياض: **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، ص: 146.
(2) الخطيب البغدادي: **تقييد العلم**، ص: 95.
(*) معروف بن عبدالله الخياط أبو الخطاب الدمشقي يقال إنه رأى أنس بن مالك.
(3) السمعاني: **أدب الإملاء والإستملاء**، ص: 13.

obeikandl.com

العامة بأمور الدين وأصوله وأحكامه، ومنها ما كان دروساً منظمة في علم من العلوم... وكان الشيخ يقوم بالإملاء بتؤدة وتأنٍ وبترتيب المسائل والأمور ويقوم الطلاب بتسجيل ما يملي عليهم... وقد يقوم الشيخ بتملية النص ثم يقوم بشرحه ويقوم الطلاب بتسجيل هذا الشرح على هامش النص. وعندما يكمل الشيخ أماليه كانت تعرض عليه أو يقوم الطلاب بقراءتها عليه لتصحيح ما قد يكون بها من أخطاء، ثم يُوَقِّع الشيخ على نسخة الطالب مجيزاً إياه على روايته وتدريس هذه الأمالي من بعده»[1].

وفي وصف طريقة إملاء اللغة يقول السيوطي (911 هـ/ 1505 م): «يكتب المستملي أول القائمة مجلس إملاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا، ويذكر التاريخ ثم يورد المملي بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء، فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره»[2].

وكان الشيخ يملي دون مساعد على تبليغ الكلام في حال كان الحضور قليلاً يستطيعون سماع صوته. ولكن مع تدفق الطلبة على الحلقات العلمية اتسعت المجالس، ولم يعد يمقدور الأستاذ أن يسمع صوته للجميع، فبرزت الحاجة إلى المستملي. وكانت الحلقات تصغر وتكبر حسب سمعة المدرس وشهرته العلمية. وغالباً ما كان طلاب حلقة الحديث أكبر عدداً من طلاب حلقة الفقه، فالقاضي أبو يعلى المحدث (458 هـ/ 1066 م) كان يحضر الناس مجلسه، وهو يملي حديث رسول الله ﷺ بعد صلاة الجمعة بجامع المنصور، وكان المبلغون عنه في حلقته والمستملون ثلاثة. وبسبب كثرة عدد الحضور كان الناس يحجدون في حلقة الإملاء على ظهور بعضهم «لكثرة الزحام في صلاة الجمعة في حلقة الإملاء، وما رأى الناس في زمانهم مجلساً للحديث اجتمع فيه ذلك الحجم الغفير والعدد الكثير»[3].

وفي بعض الحالات وصل عدد المستملين في الرواية إلى المئات. فلقد

(1) محمد منير مرسي: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، ص: 94.
(2) السيوطي: **المزهر في علوم اللغة**، 2/ 314.
(3) ابن أبي يعلى: **طبقات الحنابلة**، 2/ 200.

روي أن الفريابي لما وصل بغداد استقبله الناس، واتجهوا إلى «شارع المنار بباب الكوفة ليسمعوا منه فاجتمع الناس فحرز من حضر مجلسه لسماع الحديث فقيل: نحو ثلاثين ألفاً وكان المستملون ثلاثمائة وستة عشر»[1].

وكان المستملي أحياناً يصعد إلى مكان مرتفع سواء كان حائطاً أو شجرة حتى يسمع صوته للحضور. ويروى أن المعتصم (227 هـ/ 841 م) قد وجه من يحزر مجلس عاصم بن علي (221 هـ/ 836م) في رحبة النخل. وكان عاصم يجلس على سطح المسقطات. وكانت جموع غفيرة من الناس تنتشر في الرحبة وما يليها... فكان عاصم يحدث قائلاً: «حدثنا الليث بن سعد (175 هـ/ 791م) ويستعاد. فأعاد أربع عشرة مرة والناس لا يسمعون. وكان هارون المستملي يركب نخلة معوجة ويستملي عليها. فبلغ المعتصم كثرة الجمع فأمر بحزرهم، فوجهه بقطاعي الغنم فحزروا المجلس عشرين ألفاً ومائة ألف»[2].

وكانت هناك تقاليد يتبعها الشيخ لإنهاء الدرس كأن يقول: «هذا آخره أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى»[3]. ثم يتبع ذلك بدعاء مختار من الأدعية النبوية المأثورة ويدعو لمن حضر المجلس مثلما كان يفعله عبد الله بن عمر ﷺ[4].

والحقيقة أن الأمالي التي كتبت في مجالس التدريس أثرت التراث الفكري الإسلامي فمنها «تكونت المخطوطات التي طبع كثير منها فأصبحت كتباً شهيرة. ومنها ما زال مخطوطاً حتى الآن. واتخذت هذه المخطوطات عناوين مختلفة حسب موضوعاتها واحتفظ بعضها بلفظ «الأمالي» عنواناً مثل أمالي القالي إسماعيل بن القاسم أبو علي (356 هـ/ 967م) وأمالي ابن الحاجب عثمان بن عمر أبو عمرو جمال الدين (646 هـ/ 1249م) وغيرهما ممن اشتهروا في هذا المجال[5]. غير أنّ هذه الطريقة تراجعت بسبب عدد من الظروف المحيطة فقد «كان الإملاء درس بعد ابن الصلاح (643 هـ/ 1245م) إلى أواخر أيام الحافظ أبي الفضل العراقي (806 هـ/

(1) السمعاني: **أدب الإملاء والاستملاء**، ص: 18.
(2) الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، 1/ 359.
(3) ابن جماعة: **تذكرة السامع**، ص: 44 ـ 45.
(4) السمعاني: **أدب الإملاء والاستملاء**، ص: 107.
(5) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 375.

1404م)، فافتتحه سنة ست وتسعين وسبعمائة»[1].

إلّا أنّ هذا لا يقلل من أهمية هذه الطريقة لأنها لعبت دوراً مميزاً على صعيد الحياة الثقافية والفكرية في المجتمع الإسلامي. غير أنّ الحاجة لها أخذت تتراجع مع تطور الحياة واتساع رقعة انتشار الكتب التي ترافقت مع ازدهار صناعة الورق في البلاد. وكان من الطبيعي أن يكون لهذه التبدلات تأثيرها على النشاط التعليمي وطرائقه. انطلاقاً من كون التربية عملية اجتماعية لا يمكن أن تعمل بمعزل عن البيئة والظروف المحيطة بها.

4 ـ القدوة

القدوة لغة: ما تسنّنت به واقتديت به. والقدوى ككسرى: الاستقامة، والقدو: الأصل تتشعب منه الفروع[2]. وطبقاً لهذا يكون الرسول ﷺ قدوة كل إنسان مسلم. فالله ﷻ «بعث رسوله ﷺ وَزكّاه بالعلم ليكون أهلاً للقيادة الرشيدة والأسوة الحسنة، والمثل الكامل على طول الزمان»[3].

يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[4]. والقرآن الكريم يركز على مبدأ القدوة الحسنة الذي لا يخالف قوله فعله إذ يقول تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[5]. ويقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[6]. فعلى هذه الأسس التي دعا إليها الإسلام، شكلت شخصية الرسول ﷺ القدوة الحسنة التي تمثلت القرآن الكريم، وحوّلت مبادئه ومعانيه إلى تصرفات وسلوك ومعاملات وأفكار ومشاعر، فكان خلقه ﷺ القرآن.

---

(1) السيوطي: **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، 2/ 139.
(2) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، 4/ 376.
(3) محمد شديد: **منهج القرآن في التربية**، ص: 136.
(4) سورة: النساء، الآية: 113.
(5) سورة: البقرة، الآية: 44.
(6) سورة: الصف، الآيتان، 2، 3.

ومن يستقرىء حياة الرسول ﷺ «يجد مطابقة تامة بين الرأي والعمل، بين الفكر والتطبيق... والرسول بذلك يبين لنا منهجاً تربوياً أساسياً وهو أن يتمثل المعلم دائماً ما يقول ويعلم وإلاّ فلا أثر لذلك»[1] لأنّ من يخالف قوله فعله ويمارس عكس ما يدعو إليه ليس أهلاً لأن يكون قدوة للناس. والأولى به أن يعلم نفسه ويؤدبها قبل أن ينبري ليعلم الناس ويؤدبهم «فالمعلم ليكون قدوة لا بد وأن يتمثل المنهج الذي يُعَلِّمه ويربي به حيث يربي على هديه، حتى لا يكون هناك تناقض بين قوله وعمله، وحتى يتخذه المتعلمون قدوة لهم، ويتأسوا به في كل حركاته وسكناته فضلاً عن أخلاقه ومنهجه، وإلّا فإن التربية تنقلب إلى تلقين وحفظ وتسميع دون أي أثر عملي لها»[2].

فالمنهج إذن «يظل حبراً على ورق ما لم يتحول إلى حقيقة تتحرك في واقع الأرض، وإلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادىء هذا المنهج ومعانيه. ولذلك فعندما أراد الله لمنهجه أن يسود الأرض، ملأ به قلب إنسان وعقله كي يُحوله إلى حقيقة في واقع الأرض. فكان أن بعث الله محمداً ﷺ ليكون قدوة للناس في تطبيق هذا المنهج»[3].

وهذا يعني أنّ التعليم لا يثمر ولا يستمر «إلا إذا كان له من يمثله بعمله، ويدعو إليه بأخلاقه، وفضائله ويعرفه إلى الناس بالقدوة والأسوة، فيقتدي الناس بدعائه عن طريق العمل بعد العلم معجبين بسجايا هؤلاء الرعاة مُعظمين لأخلاقهم مكرمين طهارة قلوبهم، وزكاء نفوسهم، ونظافة أخلاقهم، ورحابة عقولهم، وحصانة آرائهم، وسداد أفكارهم»[4].

ولهذا كان الاقتداء بالنبي من أهم طرق التعلم عند الصحابة الذين كانوا يتبعون الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله اتباعاً لا مثيل له. فعن إياس بن سلمة[*]، عن

---

(1) سعيد إسماعيل علي: **الأصول الإسلامية للتربية**، ص: 315.
(2) علي خليل أبو العنين: **فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم**، ص: 230.
(3) علي أحمد مدكور: **منهج التربية في التصور الإسلامي**، ص: 430.
(4) سعيد إسماعيل علي: م. س، ص: 314.
(*) إياس بن سلمة بن الأكوع الأسلمي، أبو سلمة ويقال أبو بكر، المدني ثقة تابعي من الثالثة مات سنة تسع عشر ومائة.

أبيه قال: «بعث النبي ﷺ عثمان بن عفان إلى مكة فأجاره أبان بن سعيد(*) وحمله على سرجه وردفه حتى قدم به مكة فقال: يا بن عم أراك متخشعاً أسبل إزارك كما يسبل قومك. قال: هكذا يأتزر صاحبنا إلى أنصاف ساقيه. قال يا ابن عم طفت بالبيت، قال: إنّا لا نصنع شيئاً حتى يصنع صاحبنا ونتبع أثره»[1].

واستطاع الرسول ﷺ أن يرسخ مبدأ الاقتداء عند الصحابة، ومن جاء بعدهم من التابعين والعلماء العاملين، الذين تخلقوا بأخلاق الرسول ﷺ حتى يكونوا القدوة الصالحة لتلاميذهم كي ينهجوا منهجهم، ويسيروا سيرهم، وهو ما كانوا يدعون إليه ويوصون به، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة النبي ﷺ وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»[2].

فالمطلوب من المعلم في الإسلام أن يكون قدوة، سواء كان معلماً للكبار، أو للصغار. وهو ما تمسك به المسلمون في عصورهم المتعاقبة. فهذا عتبة بن أبي سفيان (44 هـ/ 664م) يكتب إلى مؤدب ولده يقول له: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنيّ إصلاحك نفسك: فإنّ أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت»[3].

ولقد نوّه علماء المسلمين بشخصية المعلم في العملية التعليمية ودوره كقدوة يتأسى به. فالغزالي ـ مثلاً ـ يوصي المعلم أن «لا يكذب قوله فعله»[4] لأنّه في حال «خالف العمل العلم منع الرشد. وكل من تناول شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنّه سم مهلك، سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشد مثل

(*) أبان بن سعيد بن العاص الأموي، أبو الوليد، صحابي من ذوي الشرف، استشهد في وقفة أجنادين في خلافة أبي بكر، وقيل مات في خدمة عثمان.

(1) ابن سعد: **الطبقات**، 1/ 461.

(2) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم**، 2/ 97.

(3) الجاحظ: **البيان والتبيين**، 2/ 48.

(4) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 72.

النقش من الطيف والظل من العود فكيف ينقش الطين بما لا نقش فيه، ومتى استوى الظل والعود أعوج»[1]. ولقد نبه ﷻ إلى ذلك في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[2]. ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل، إذ يزل بزلته عالم كثير يقتدون به. ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال علي ﷺ: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك، فالجاهل يغير الناس بتنسكه، والعالم يغيرهم بتهتكه، والله أعلم»[3].

وانطلاقاً من هذا الفهم لدور المعلم كان من الطبيعي أن يدعو علماء المسلمين للمشورة والتريث في اختيار المعلم ـ وهذا ما أكد عليه ونادى به الإمام أبو حنيفة الذي كان معجباً برأي ذلك الحكيم الذي أوصى تلميذه ـ عندما عزم الأخير بالذهاب إلى بخارى لطلب العلم ـ قائلاً له: «إذا ذهبت إلى بخارى فلا تعجل في الاختلاف إلى الأئمة وامكث شهرين حتى تتأمل وتختار أستاذاً... وشاور حتى لا تحتاج إلى تركه والإعراض عنه، فتثبت عنده حتى يكون تعلمك مباركاً وتنتفع بعلمك كثيراً»[4].

وتتجلى أهمية المعلم في كونه قدوة من خلال دوره فهو «مسؤول عن ذاته ومسؤول عن الجماعة التي ينتمي إليها أمام ذاته، أي أنها مسؤولية ذاتية، ومسؤولية أخلاقية، مسؤولية فيها من الأخلاقية ما في الواجب الملزم داخلياً، إلا أنه إلزام داخلي خاص بأفعال ذات طبيعة اجتماعية، أو يغلب عليها التأثير الاجتماعي»[5].

وهكذا كان على المعلم «الالتزام بالآداب الشرعية الظاهرة والخفية حتى يكون قدوة صالحة لمن يعلمه، وحتى يتحقق فيه قول الرسول ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[6] فيجعل الله تعالى أمام عينيه في كل أعماله في سره وعلانيته»[7].

---

(1) الغزالي: م. ن، ص. ن.
(2) سورة: البقرة، الآية: 44.
(3) الغزالي: م. س، ص. ن.
(4) الزرنوجي: **تعليم المتعلم طريق التعلم**، ص: 74.
(5) سيد أحمد عثمان: **المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة**، ص: 43.
(6) البخاري: **صحيح البخاري**، 9/ 156.
(7) علي القره داغي: «**القسم الدراسي**»، في **أيها الولد**، ص: 72.

كل هذا يقود إلى القول: إن طريقة القدوة تقوم على اتباع سلوك سام، وهو ما جَسَّده الرسول ﷺ قولاً وعملاً. فلقد كان ﷺ «قدوة للناس في واقع الأمر... يرونه... وهو بَشَر منهم تتمثل فيه هذه الصفات كلها، وهذه الطاقات فيصدقون هذه المبادىء الحية؛ لأنّهم يرونها رُأى العين ولا يقرأونها في كتاب، ويرونها في بشر فتتحرك لها نفوسهم، وتهفو لها مشاعرهم، ويحاولون أن يقبسوا قبسات من الرسول كل بقدر ما يطيق أن يقبس»[1].

والرسول المربي بسلوكه قبل قوله حث على اعتماد هذه الطريقة في التعلم. وفي ذلك يقول لصحابته: «**ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم، وعلموهم ومروهم... وصلوا كما رأيتموني أصلي...**»[2]. فالقدوة كما يفهم من كلام الرسول ﷺ ضرورة من ضرورات التعلم. وبالنسبة للمسلمين تمثل شخصية الرسول ﷺ القدوة الدائمة المتجددة على مر العصور والأزمان.

5 ـ القصة

يعود أصل اشتقاق كلمة القصة إلى قصّ. ويقال: قصّ أثره قصّاً وقصيصاً تتبعه والخبر أعلمه: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[3]. أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[4]. نبين لك أحسن البيان. والقاص من يأتي بالقصة[5]. وجاء في لسان العرب القصة الخبر المقصوص بفتح القاف[6]. والقصص بالكسر جمع القصة التي تكتب[7].

وليس من المبالغة القول: «إن القصة كانت أول ما صحب الإنسان من تصورات عقله وصيد خواطره وطوارق أخلاقه وهواجس رؤاه. ولسنا بالمبالغين

---

(1) محمد قطب: **منهج التربية الإسلامية**، 1/ 325.
(2) البخاري: **صحيح البخاري**، 9/ 156.
(3) سورة: الكهف، الآية: 64.
(4) سورة: يوسف، الآية 3.
(5) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، 2/ 313.
(6) ابن منظور: **لسان العرب**، 8/ 342.
(7) الرازي: **مختار الصحاح**، ص: 270.

أيضاً إذا قلنا: إنّ هذه التصورات، وتلك الخواطر، والطوارق، والهواجس كانت أقوى قوة دفعت الإنسان إلى تحريك لسانه وإلى إيقاظ ملكاته وإطلاق جميع القوى الكامنة فيه بحثاً عن الكلمات التي يضعها على شفتيه ليصور بها تلك الأهوال التي تضرب في أعماقه وتموج في مسارب تفكيره وتتراقص على مسرح خياله»[1].

والواقع: إنّ «سحر القصة قديم قدم البشرية وسيظل معها حياتها كلها على الأرض... لا يزول»[2] ولذلك «كانت القصة ـ وما تزال ـ مدخلاً طبيعياً يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات من الرسل والقادة والمصلحين إلى عقول الناس وقلوبهم ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه من معتقدات وآراء واتجاهات»[3].

ولقد تضمن التراث الأدبي للعرب في الجاهلية كثيراً من القصص المحلي والمنقول، وكان هذا القصص يدور حول الجان والسحر «أمّا قصص القرآن فهي قصص عن حياة الأنبياء والرسل والأقوام السابقة على الإسلام، فقد أراد الله أن يفرق بينه وبين قصص العرب التي قام بعضها على الخيال، أو الكذب، أو التحريف، أو التعريب بالإضافات والتعديل»[4].

ولقد أشار ﷻ إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[5]. وقوله أيضاً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[6].

ومثلما أنّ الفنون تؤثر في نفوس الكبار كما تؤثر في نفوس الصغار، فإنّ «القصة نوع من الأدب له جماله وفيه متعة ويشغف به الصغار والكبار إذا أجيد انشاؤه وأجيدت وساطته وأجيد تلقيه»[7]. غير أنّ القصة في القرآن الكريم «ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه كما هو الشأن في

(1) عبد الكريم الخطيب: **«مصادر القصص القرآن ومقاصده»**، في **مجلة الوعي الإسلامي**، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، السنة 8، العدد 86، صفر 1392 هـ/ 1972، ص: 29.
(2) محمد قطب: **منهج التربية الإسلامية**، 1/ 193.
(3) سعيد إسماعيل علي: **الأصول الإسلامية للتربية**، ص: 110.
(4) أمينة أحمد حسن: **نظرية التربية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في عهد الرسول**، ص: 243.
(5) سورة: آل عمران، الآية: 62.
(6) سورة: يوسف، الآية: 3.
(7) عبد العزيز عبد المجيد: **القصة في التربية**، ص: 12.

القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد، إنّما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل»[1]. ومع ذلك فإنّ القصص القرآني يحفل «بكل أنواع التعبير الفني ومشخصاته من حوار إلى سرد إلى تنغيم إلى موسيقى إلى إحياء للشخص إلى دقة في رسم الملامح إلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة في القصة»[2].

فالقصة في القرآن الكريم صورة من الصور الفنية والجمالية التي تسهم في تحقيق الأهداف التربوية الإسلامية، وفي طليعتها بناء الشخصية الإسلامية من خلال توصيل المعلومات، والحقائق بطريق شيقة لذيذة تساعدهم على اكتساب اتجاهات خلقية، وعقلية ودينية وسلوكية صحيحة من خلال العبر والمثل، التي تضعها أمامهم لتستثير ميولهم لتقليدها، ولتحرك قابلياتهم لاستهوائها.

ففي قصص القرآن تبرز «الأهداف التربوية واضحة ذلك أنّ شخصيات هذه القصص واقعية لكل عصر، وبالتالي فإن المربي الجيد هو الذي يمكنه أن يستغل هذه المواقف وتلك الشخصيات في تحقيق أهداف التربية الإسلامية. وليس موضوع القصة خاصاً بمادة معينة أو موضوع معين، بل إنها تصلح لكل المواد»[3].

وقد نجح الرسول في توظيف القصة لتحقيق أهدافه التعليمية والتربوية لأنه كان يدرك طبيعة الإنسان وميله الفطري لها. لذلك لم يتردد في استخدام أسلوب القص كطريقة من طرائق التعليم التي استفاد منها في مجالسه. ومن أمثلة ذلك قصة الثلاثة الأخوة الذين آووا للمبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار[4]. فالرسول ﷺ أراد من وراء هذه القصة أن يحدث عند سامعيه تغييراً في سلوكهم الاجتماعي، واتجاهاتهم الخلقية من خلال العبر التي تضمنتها القصة، نتيجة احترام الوالدين والتمسك بالعفة والطهارة وأداء الحق إلى أهله ومهابة الله وخشيته.

---

(1) سيد قطب: **التصوير الفني في القرآن**، ص: 119.
(2) سعيد إسماعيل علي: **أصول التربية الإسلامية**، ص: 36.
(3) علي خليل أبو العنين: **فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم**، ص: 236.
(4) انظر: البخاري: **صحيح البخاري**، 3/ 185.

وبعد وفاة الرسول ﷺ نما القصص بسرعة، وارتفع شأنه حتى أصبح عملاً رسمياً يعهد به إلى رسميين يعينون عليه أجراً «غير أنّ هذا القصص الذي أدخل على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية، كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث مزيفة أتعبت الناقد، وأضاعت معالم الحق»[1].

وبذلك انحرفت هذه الطريقة في التعليم عن المنتج القويم الذي وضعه القرآن الكريم، وطبقه النبي ﷺ فكان من الطبيعي أن يحذر علماء المسلمين من مخاطرها، ويعلنوا للناس أن القصص «بدعة وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا لم يكن ذلك زمن رسول الله ﷺ، ولا زمن أبي بكر، ولا عمر رضي الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص»[2].

ويحاول الغزالي أن يعيد الأمور إلى نصابها، فيذكر أصحاب هذه الطريقة بضرورة الالتزام بما جاء فيه القرآن الكريم أو ما نهج نهجه بعيداً عن الكذب، أو ما قد يؤدي إلى اللبس وسوء الفهم. وفي حال اجتناب هاتين الآفتين يمكن القول: «إن من القصص ما ينفع ساعة»[3]. ورغم ذلك فإنّ المخاوف من القصص ـ حتى ولو كان صادقاً ـ يجب أن لا تغيب عن البال لأنّ «منها ما يضر وإن كان صادقاً»[4]. غير أنّ الغزالي في نهاية المطاف يضع حلاً جذرياً للمشكلة يتمثل في الرجوع إلى «القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن الكريم، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار»[5].

فالخوف من التأثير السلبي للأسلوب القصصي على القلوب والنفوس لا بد وأن يوجب التنبه لاستعمال هذا الأسلوب، وتوظيفه بالوجهة التي لا تتعارض مع

(1) أحمد أمين: **فجر الإسلام**، ص: 160.
(2) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 46.
(3) الغزالي: م. ن، 1/ 47.
(4) الغزالي: م. ن، ص. ن.
(5) الغزالي: م. ن، ص. ن.

مصالح المسلمين، بحيث «تلتقي مطالب الفن ومطالب التصور الإيماني دون تعارض ولا نزاع. ويستفيد الإسلام بالقصة في التربية دون أن يخرج عن أهدافه الأصلية أو يجانب الحق أو يحول الفن إلى خطب وعظية سطحية التأثير»[1]. وهو ما يجب أن يسعى المربون المسلمون لتحقيقه حتى يتمكنوا من بلوغ أهدافهم التعليمية والتربوية.

obeikandl.com

(1) محمد قطب: **منهج التربية الإسلامية**، 1/ 20.